كاترينا الثانية امبراطورة الروس

ختمنا الكلام في مقتطف سبتمبر بوفاة القيصر بطرس الاكبر وكان قد اوصى بالملك بعدهُ لزوجتهِ كاترينا الاولى فخلفتهُ سنة ١٧٢٥ ولكن الحزب الذي لم يرضهِ ما ادخلهُ من الاصلاح في بلادهِ سعى جهدهُ حتى نصَّب بطرس الثاني حفيد بطرس الاكبر وابن ابنهِ الكسس. وتوفي بطرس الثاني هذا بعد ثلاث سنوات وخلفتهُ الاميرة حنة ابنة الامبراطور ايفان فحكمت عشر سنوات من سنة ١٧٣٠ الى ١٧٤٠ . وفي ايامها علت كلمة الالمان في بلاط روسيا وصارت بلاد الروس مغنماً لهم. وخلفها ايفان ابن اختها لكنهُ أُنزل عن العرش حالاً وخلفتهُ اليصابات ابنة بطرس الاول فجرت على ضد ما جرت عليهِ الامبراطورة حنة وافصت الالمان واعادت الى مجلس الشيوخ سلطتهُ التي خولهُ اياها بطرس الاكبر وسنَّت نظام القرعة وزادت المكوس على الواردات. وخلفها بطرس الثالث زوج كاترينا الثانية وكان ضعيف العقل ضعيف الرأي لكن كان عندهُ وزير حكيم فانقاد اليهِ وعمل بمشورتهِ وكان اول اعمالهِ انهُ اعفى الاشراف من القيد الذي قيدهم بهِ بطرس الاكبر وهو خدمة الحكومة وقال في اعفائهم ان القانون الذي وضعهُ جدي بطرس الاكبر كان في محلهِ حينما وضعهُ لانهُ اجبرهم على ان يتعلموا و يتفقهوا حتى يستطيعوا خدمة الحكومة فنشأ منهم القوَّاد العظام والسياسيون المتمكنون. امَّا ولد تمَّ الغرض المقصود فلم يبقَ داعٍ للتمسك بهذا القانون. فسُرَّ الاشراف بذلك وعزموا على ان يقيموا لهُ تمثالاً من الذهب اظهاراً لشكرهم فابى وطلب منهم ان يستعملوا الذهب لغاية انفع وقال انهُ يرجو ان يقيم لنفسهِ في قلوب رعاياهُ تذكاراً ابقى من التمثال. والغى ديوان البوليس السري وكان آفة على البلاد من بعض الوجوه مثل ديوان التفتيش. واهتمَّ باسر المنشقين عن الكنيسة الروسية وكانوا قد اضطهدوا اضطهاداً شديداً حتى نقص عددهم من اربعين الفاً الى خمسة آلاف في ولاية نوفغورود وحدها وهرب الوف منهم الى القفقاز او هاجروا الى بلدان اخرى فامر بارجاعهم الى روسيا واعطائهم ارضاً في سيبيريا واخذ املاك الاديرة وقطع كرهبان مالاً يعيشون بهِ بدلاً منها وعفى عن الذين وقع بهم العقاب في الحكم السابق ونفوا

لكن سلوكهُ كان مخالفاً لاوامرهِ على خط مستقيم فسلب خدَّام الدين اموالهم واحتقر المذهب الارثوذكسي بعد ان اعتنقهُ لانهُ كان قد ربي على مذهب لوثيروس. واهان الكهنة

واغاظ ضباط الجيش وابطل الحرس الملكي وادخل في البلاد عادات غريبة وسنّ جديدة جاعلاً بلاط بروسيا انموذجاً لهُ وقاصداً الاقتداء بهِ في كل امر . وكان مولعاً بشرب البيرة فيقيم الليل كلهُ بين الكاس والطاس الى الصباح حتى يسكر سكراً طافحاً

وجرى في سياستهِ الخارجية على اسلوب وسّع مسافة الخلف بينهُ وبين شعبهِ ولاسيما بعد ما رأوهُ يباهي بتعطفهِ ملك بروسيا عليهِ ويحلف باسمهِ بعد ان كانت روسيا قد اذلت بروسيا . واعاد الى بروسيا كل الاملاك التي اخذتها روسيا منها وحالف ملكها فردرك الكبير محالفة هجوم ودفاع واولم وليمة فاخرة وقت توقيع هذه المحالفة شرب فيها نخب ملك بروسيا وهو يقول « نشرب نخب رئيسنا الذي شرفني بالتمانهِ اياي على فرقة من جيشهِ وارجو ان لا يعزلني من هذا المنصب وأوكد لكم اني اهجم على جهنم بجيشي اذا امرني بذلك » وكان فردرك الكبير قد اعطاهُ لقب قائد لفرقة من جيشهِ

وكان قد اقترن في صباهُ بابنة امير سكسونيا اسمها صوفيا اوغسطا باشارة ملك بروسيا اتت بها امها الى روسيا وادخلتها المذهب الارثوذكسي وعمرها ١٥ سنة فسميت كاترينا فاقترن بها سنة ١٧٤٥ وعمرهُ سبع عشرة سنة فقط . وكانت جميلة المنظر ذكية العقل عالية المطالب فرأتهُ يقضي اوقاتهُ في تربية الكلاب والجرذان وتعليمها الحركات العسكرية ويقناط كلما نهتهُ عن ذلك او ابانت لهُ مخافة عملهِ ويتعشق نساءَ البلاط ويطلعها على فعالهِ فذلك وادمانهُ المسكرات ابعدا قلبها عنهُ لكن عزيمتها لم تضعف كأنها قصدت ان تتسلط على البلاد اذا عجز زوجها عن السلطة فتعلمت اللسان الروسي حتى برعت فيهِ ودرست تاريخ روسيا وعادات اهلها وقوانين حكومتها وعرفت كل ما يرضي الامة الروسية وما يغيظها فرسخ ذلك في نفسها حتى صارت روسية قلباً وقالباً ومهل عليها استمالة الشعب الروسي اليها . وتخرجت في العلوم والآداب العصرية فاتقنت اللغة الفرنسوية وقرأت كل ما كان ينشر فيها من كتب الادب والفلسفة وكانت كتب ڤولتير واضرابهِ تسليتها وجاهرت بانها من تلامذتهم في اصلاح شؤون البشر . وكانت تراسلهم دواماً . فبينما كان زوجها يقضي نهارهُ في اللهو واللعب وليلهُ في السكر والخلاعة كانت هي تثقف عقلها وتوسع معارفها وتزيد سطوتها على عقول كبار الامة . ولم يكن ذلك بالامر السهل في بلاط تشملهُ المفاسد لكنها فازت اخيراً وصار اهل البلاط كلهم يخدمونها رجالاً ونساءً . ولما استوى زوجها على عرش الملك سنة ١٧٦٢ جعل يستشيرها في امورهِ لانهُ كان يعترف لها بالتفوق العقلي والمقدرة الادارية مع انهُ كان يكرهها ويود التخلص منها . واضطرها ذات يوم ان تلبس احدى خليلاتهِ وسام القديسة كاترينا فعزمت

من ذلك الحين على ان تتخلص منهُ قبلما يتخلص منها ولاسيما بعد ان بلغها انهُ امر بالقبض عليها ووضعها في احد الاديرة

وكان فريق كبير من ضباط الجيش واعيان الامة معها يرون ان لا بدَّ من خلع زوجها والمناداة بابنها بولس امبراطوراً وجعلها وصية عليهِ او المناداة بها امبراطورة فسمحها الكهنة وصية على ابنها ونادى بها الضباط امبراطورة وطافوا بها في الشوارع والشعب يحييها باسم امبراطورة روسيا. وكان زوجها خارج بطرس برج يعلم جنودهُ الالمانيين ولم يكد خبر زوجتهِ يصل اليهِ حتى انصرف عنهُ كل اعوانهِ فتنازل عن عرش الملك في اليوم التالي وزار زوجتهُ وخليلتهُ معهُ فارسلتهُ الى مكان من اجمل اماكن روسيا ليقضي بقية ايامهِ فيهِ وارسلت معهُ اربعة من اودع الضباط لكن اولاد اورلوف تبعوهُ اليهِ وحاولوا قتلهُ سمًّا فتعذَّر عليهم فخنقوهُ خنقاً والامبراطورة لا تعلم ذلك على ما يظهر ولكن يقال ان احد اولئك الرجال كان خليلاً لها فكأنهُ عمل بما ظنَّ انهُ يرضيها. قال السفير الانكليزي الذي كان في ذلك الوقت بعثت اليَّ الوزارة الروسية برقعة تقول فيها « ان وزير الامبراطورية الروسية يرى من واجباتهِ ان يعلم وكلاء الدول الاجنبية ان الامبراطور السابق أُصيب بنكبةٍ بمرض شديد كان معرَّضاً لهُ فتوفي امس »

وكتب فولتير في ما كتبهُ عن الامبراطورة كاترينا ما يأتي « لا يخفى انها تُذكَر باللوم على امور طفيفة من حيث علاقتها بزوجها. هذه مسائل عائلية لا اتعرض لها وخير للمرء ان يكون فيهِ عيب يحاول اصلاحهُ لانهُ يضطر حينئذٍ ان يبذل وسعهُ لنيل احترام الناس لهُ واعجابهم بهِ ». وقد فعلت كما قال لانها انست الروسيين ما مضى وجعلتهم يذكرونها دائماً بالاعظام والاجلال

ولا يسعنا ذكر كل الاعمال السياسية والحربية التي قامت بها هذه الامبراطورة فنكتفي بما قلنا ودلَّ فانهُ لم يكد الامر يستتبُّ لها حتى وجَّهت عنايتها الى علاقات بلادها بالبلدان المجاورة. فجرت على خطة الذين سلفوها وهي توسيع بلادها من كل جهة ولاسيما من جهة البحر فنالت فوزاً كبيراً لم ينلهُ فيهِ احد. واول شيء فعلتهُ انها طردت صاحب كورلند واقامت عليها اميراً من قبلها ثم ما زالت تضايقها حتى انضمت الى الامبراطورية الروسية سنة ١٧٩٥ وهي امارة صغيرة على بحر بلطيق مساحتها نحو عشرة آلاف ميل مربع وعدد سكانها الآن نحو سبع مئة الف نفس. واظهرت العداء لفردرك الكبير ملك بروسيا ولكنها لما رأت انهُ لم يعاملها بمثل ما عاملتهُ بهِ ولا وجدت في ما دار بينهُ وبين زوجها من المراسلات شيئاً

يغيظها محالفة هجوم ودفاع دامت الى آخر ايامه وغرضها الاكبر منها امتلاك بولندا او افتسامها . وكان في بولندا حزبان حزب يؤيد الحرية الدينية وحزب يمنعها فايدت في الحزب الاول وقاومت الحزب الثاني فتمزق شملهُ واضطرَّ اعضاؤهُ ان يهربوا الى بلاد النمسا وبلاد الدولة العلية فاغتاظت الدولة من تقدم الروس في بولندا وشهرت الحرب على الامبراطورة كاترينا ويقال ان سفير فرنسا هو الذي حمل الباب العالي على محاربة روسيا . وكانت جنود الامبراطورة كاترينا في بولندا فلم تكن متأهبة لمحاربة الباب العالي لكنها كتبت الى قوادها تقول « ان الرومانيين لم يكونوا يسألون عن عدد خصمهم بل كانوا يكتفون بالسؤال اين هو » . وكان الصدر الاعظم قد حمل على تخوم روسيا بمئة الف محارب سنة ١٧٦٨ فامرت القائد اسكندر غالتسوين ان يتقدم للقائهِ بثلاثين الفاً وامرت رومانتسوف ان يحمل اكرينا مخافة من ثئار القرم والتق غالتسوين بالصدر الاعظم فرب خوتين وفاز عليهِ ونزل في الفلاخ والبغدان وذلك سنة ١٧٦٩ وفي السنة الثانية تغلب رومانتسوف على خان التتار وهاجم الصدر الاعظم في كهول فحدث ما ساعدهُ على الفوز عليهِ . وسنة ١٧٧١ اجتاح الروس كل بلاد القرم واستولت جنود الفلاخ على حصون الطونه واجتاحوا بسارابيا واخذوا مدينة بندر ودخلوا بلاد البلغار

وبعثت الامبراطورة بعمارة بحرية من بحر بلطيق دارت حول اوربا ودخلت بحر الروم ووصلت الى بلاد اليونان والتقت بالاسطول العثماني في سافص وتغلبت عليهِ ويقال ان الاسطول العثماني انتصر على الاسطول الروسي اولاً وعاد بعد النصر الى ميناء جشمه فتبعهُ حراقتان من اسطول الروس ظن العثمانيون انهما فرَّتا من الاسطول الروسي وانما للانضمام اليهم فلم يعارضوهما في الدخول الى المرفإ لكنهما لم تلبثا ان دخلتا حتى القتا النيران في الاسطول العثماني فاحترق كلهُ وذلك في ٦ يوليو سنة ١٧٧٠ فخاف الناس في الاستانة من وصول العمارة الروسية اليها ويقال انها لو ظلت سائرة حينئذٍ لما منعها شيء عن اخذ الاستانة ولكن اورلوف اميرها اضاع الفرصة بامتلاك الجزائر جزيرة جزيرة والحال قام البارون توت[1] وانهض همة الباب العالي الى تحصين الدردنيل وسبك لهُ المدافع الكبيرة حتى اذا جاءت الاسطول الروسي وجدهُ امنع من عقاب الجو . الاَّ ان الروس استولوا على ازاق وكل بلاد القرم وسواحل البحر الاسود بين نهر الدنيبر والدنيستراي على بسارابيا

(١) امير بحري فحنس بالجنسية الفرنسوية وصار فضلاً لفرنسا في بلاد القرم ثم دخل خدمة الدولة العلية فاصلح القلعة وحصن الدردنيل

والفلاخ والبغدان وجانب من البلغار وجزائر الارخبيل . ورأت النمسا ذلك فراعها دنو روسيا منها وعزمت ان تقتدي تركيا ببولندا فان ملك بروسيا ارسل اخاهُ الى بطرس برج ليقنع الامبراطورة كاترينا ان تقدمها في بلاد الدولة العلية يغيظ النمسا وفرنسا فيعاونان الدولة العلية عليها وهو لا يستطيع مساعدتها لشدَّة ما قاستهُ بلادهُ في الحروب الماضية ولذلك فالسبيل الاصلح والآمن لها ان تأخذ جانباً من بولندا بدل ما تتوقع اخذهُ من بلاد الدولة وتسمح بما بقي منها لبروسيا والنمسا

وكانت تود سلامة بولندا وتريد الاحتفاظ بها على شرط ان يكون لها فيها الكلمة العليا ولكنها رأت حينئذٍ ان لا قِبَل لها بمحاربة تركيا والنمسا وفرنسا فاضطرت ان تقبل ما عرضهُ عليها ملك بروسيا فاقتسمت مملكة بولندا مع بروسيا والنمسا (١)

وعقدت شروط الصلح مع الدولة العلية سنة ١٧٧٤ ومن مقتضاها استيلاء الروس على كثير من الحصون والمواقع المنيعة وان تدفع الدولة العلية اربعة ملايين وخمس مئة الف روبل (٦٧٥ الف جنيه) غرامة حربية وتفتح البوسفور والدردنيل للسفن الروسية التجارية ويكون لتجار الروس ما لتجار الفرنسويين من الحقوق في بلاد الدولة . وتعترف الدولة العلية باستقلال تتار القرم وركوبان والولايات المجاورة وتعطي روسيا ازاق وكريش وقلبرن وكل المواقع الحصينة في القرم وكل سواحل البحر الاسود الشمالية وتعترف بحماية روسيا للمسيحيين الذين في امارات الطونا. وتسمح لها ببناء كنيسة في الاستانة . وردت روسيا الفلاخ والبغدان الى الدولة العلية بعد ان احتلتهما

لكن هذا الفوز الحربي تبعتهُ رزيئة طبيعية من اشد الرزايا فان الطاعون انتشر في روسيا حتى بلغت الوفيات به في مدينة موسكو الفاً في اليوم في شهري يوليو واغسطس سنة ١٧٧١ وبلغ من هوس العوام ان قاموا على رئيس الاساقفة وقتلوهُ ونهبوا بيتهُ لانهُ منعهم من تقديم القرابين الى صورة العذراء وكثُر الشغب حتى اضطرت الحكومة ان تفرق شمل المشاغبين

(١) هذا هو التقسيم الاول ثم الغي وعادت بولندا الى استقلالها واصلحت شؤونها ولكنهُ اعيد على اسلوب آخر واخرجت النمسا منهُ واعيد ثالثة وادخلت النمسا فهو فجعل نصيب روسيا بلاداً يسكنها مليون ومئتا الف نفس وبروسيا بلاداً يسكنها مليون نفس والنمسا بلاداً يسكنها مليون نفس وذلك كلهُ في عهد الامبراطورة كاترينا . وصحح هذا التقسيم بعد ذلك فوسع نصيب روسيا . والآن يبلغ عدد البولنديين في قسم روسيا ١٦ مليوناً وفي قسم بروسيا ثلاثة ملايين وفي قسم النمسا خمسة ملايين

بالسلاح . وتلت ذلك ثورة اميليان بوغتشف التي كادت تزعزع اركان الامبراطورية وبعد وقائع دموية كثيرة قُبض عليهِ واتي بهِ الى موسكو وقتل فيها

وارتأت روسيا ان يكون بينها وبين بلاد النمسا وبلاد الدولة العلية مملكة مستقلة مؤلفة من الفلاخ والبغدان وبسارابيا ويكون لها ملك ارثوذكسي وتأخذ روسيا اوتشاكوف وساحل البحر بين البُغ والدنيبر وجزيرة او جزيرتين من الارخبيل الروسي وتأخذ النمسا البوسنه والهرسك من املاك الدولة العلية ودلماتيا من املاك البندقية وتعطيها بدلاً منها بلاد الحورة وكريت وقبرص . وتعاد امبراطورية الروم وينصب عليها امبراطور حفيدها الغراند دوق قسطنطين الروسي وكانت قد عُلمتْ اللسان اليوناني لهذا الغرض . فحسن هذا الرأي لدى امبراطور النمسا ولم تضادهُ فرنسا ولكن انكلترا وبروسيا ضادتاهُ وانضمت اليهما هولندا وانحازت هذه الدول الثلاث الى الدولة العلية انتقاماً من روسيا . وفي ٢٦ يوليو سنة ١٧٨٧ ارسل الباب العالي الى سفير روسيا بلاغاً يطلب فيهِ اخراج موروكرداتو حاكم البغدان من بلادها واسترجاع قناصلها في اسلي وبخارست والاسكندرية ورفع حمايتها عن اراكلي الثاني قيصر جيورجيا ويطلب ايضاً ان يفتش مأمورو الباب العالي كل السفن الروسية المارة في البوسفور . ولما ابى السفير اجابة الباب العالي الى طلبهِ قُبض عليهِ وسجن في الابراج السبعة وشهرت الدولة الحرب على روسيا وكانت بروسيا محفزة على روسيا حينئذٍ وكذلك اسوج فوقعت الامبراطورة كاترينا بين ثلاث نيران الا ان امبراطور النمسا حالفها وشهر الحرب على الدولة العلية وخرج لقتال جنودها بمئتي الف محارب فدارت الدائرة عليهِ ودخل الصدر الاعظم بلاد المجر والتقى بالامبراطور وهو باربعين الف محارب وهزمهُ . ودامت هذه الحرب من اواسط سنة ١٧٨٧ الى اخر سنة ١٨٩١ وكثرت فيها المعارك برّاً وبحراً ولكنها كانت سجالاً عقد النصر فيها مراراً للعثمانيين ومراراً للروس . ومات امبراطور النمسا في غضون ذلك فعدل خلفهُ عن استئناف القتال ثم امضيت شروط الصلح في يناير سنة ١٧٩٢ وكانت الامبراطورة كاترينا قد قلقت بما حدث في فرنسا من الثورة فرحّبت بالصلح لاسيما وانها اخذت بهِ اوتشاكوف وساحل البحر الى الدنستر واعترفت الدولة بحمايتها لتفليس وكرنالياء وسيأتي الكلام على ادارة هذه الامبراطورة في بلادها وما ادخلتهُ فيها من وسائل العمران